

الترجمة .. والمترجم

احتراف .. أم إبداع ؟

الدكتور حفناوي بعلي

جامعة عنابة

تمثل الترجمة الحبل العصبي الرئيسي قي سريان فعالية نظرية المعرفة، وتدفع آلية البناء الحضاري إلى تمثل التواصل بين الثقافات، حتى أوشكت أن تكون الوسيلة الأولى، لتحقيق عالمية الخطاب الفكري، بين الجماعات البشرية، وكذلك بين الحقول المعرفية المختلفة إلى الدرجة التي يمكن أن تتوقف بدونها عجلة العلم والتطور.

ليست الترجمة وهما، كما تزعم مؤلفات عديدة - وهو أمر يكاد يخرج الترجمة من إطار العلم، ويجعلها ألصق بالموهبة الفردية أو الحرفية التي تحتاجها الفنون - بقدر ماهي أولا وقبل كل شيء مبحث تواصلي، يسعى إلى تحقيق نفس المفعول الموجود في اللغة. وتعد كفاءات المترجم ومهاراته التقنية والمعرفية عوامل ذهنية أساسية، قد تيسر أو تزيد في في تعقيد " خفيات الترجمة ". وتستمد مسألة المهارة المعرفية للمترجم أهميتها من كون الجزء الأعظم من اللغة، التي نتواصل بها يركز على ماهو ذاتي، ولهذا السبب، وقبل تحليل أي لغة مكتوبة، ينبغي تحليل الخصائص الدلالية الضمنية، ومن ثم فإن استعمال المترجم لمعجم ما، أو لما يماثله في اللغة المصدر، يكون في غالب الأحيان قائما على تقدير نسبي وحدي للتحليل المعرفي للعلاقة الموجودة بين مفهومين، أحدهما

مشتق من اللغة المصدر، والثاني من اللغة الهدف. إن فهم الخصائص الدلالية للكلمات، يجعل هذا النوع من النشاط الذهني حيويًا ومتطورًا في الآن نفسه، وعندما يقوم المترجم في النهاية، بإنتاج ترجمته في اللغة الهدف، فإنه يكون قد أنتج شكلًا معادلًا لواقع اللغة المصدر، لا شكلًا مطابقًا لهذا الواقع.

إن المترجمين بمثابة بنيويين في مقاربتهم، ويمكن الاستدلال على أنه باستطاعة المترجمين إقامة علائق بين القيم الدلالية الموجودة في اللغة الهدف. ومن أجل ذلك، يستعمل المترجم العمليات المنطقية المبنية على معرفة موثوق بها للقدرة الدلالية وللإنجاز، سواء في اللغة المصدر أو في اللغة الهدف. ومثل هذه العمليات المنطقية تتطلب من المترجم مقومات ذهنية داخلية، تجعله كذلك قادرًا على التوفيق بين الاختلافات، سواء اللغوية منها أو الدلالية في اللغتين معًا، وقد تتبثق عن هذا نتيجة ترجمة، بعدما يكون قد تم تحويل خصائص لغة معينة إلى سمات دلالية، وبالتالي تؤول تلقائيًا من طرف متلقي اللغة الهدف.

إن تطوير مهنة المترجم وحجم الترجمات، وظهور معاهد الترجمة والمترجمين، وميلاد الجمعيات الوطنية للمترجمين؛ المجموعة في الفيدرالية الدولية للمترجمين، وظهور الدوريات المهنية قد حثت كلها على إعادة النشر حول الترجمة. نستطيع القول أن المترجمين والترجمة لم يتخلصوا بعد من النظرة الأدبية و الشديدة والهاوية بطريقتهم، التي تنظر إلى المشاكل المطروحة من خلال تأهيلهم المهني.

الترجمة والمترجم .. بين المهنية والإبداع

ما زالت الترجمة عندنا حتى الآن نشاطا يغلب التجريب الحرفي، فلا يتناولها البحث النظري ولا الدراسة العلمية، ورغم أنها في ثقافتنا نشاط غزير، على ضالة مردوده، فإن البحث لم يصل بعد إلى مستوى هذه الغزارة، ولا التفات بالتالي إلى أسباب قلة المردود، ورغم أن الترجمة تقع في نقطة التقاء عدد من الفروع المعرفية كالآدب المقارن، والألسنيات والمنطق والفلسفة والنفسيات والتربية، فإن أي من هذه الفروع لم يعالجها بوصفها نشاطا يقع على تخومه. ورغم أن عملية الترجمة تقع على صلة وثيقة باللغويات، فإننا لا نجد اللغويين العرب، بمن فيهم المشتغلين في اللسانيات، يهتمون بهذه العملية اهتماما جديا ومثمرا.

هكذا فإننا عندما نصف الترجمة بأنها نشاط يغلب عليه التجريب الحرفي، فإن في هذا الوصف بعض التجميل والمراعاة. فالواقع أن الترجمة في بلادنا لم تصبح حرفة بعد، أي أنها حتى كحرفة لا تزال في طور التجريب. ونادرا ما نجد من يعتبرها مهنة أو نشاطا دائما، ناهيك باعتبارها اختصاصا أو موضوعا للمتابعة والاهتمام.

ندعي إذن، أن من الممكن إخراج الترجمة من حيز الهواية والتجريب إلى حيز البحث النظري والعلمي. وحتى في حال اعتبارها "فنا" من الفنون، فلا بد لهذا الفن من الاحتكام إلى جملة من الأحكام، التي تضبط الاشتغال فيه. ولا مفر على ما يبدو من استخلاص هذه الأحكام من النظر في شئون اللغات، أي من الأبحاث الألسنية. فإذا كان من الصحيح أن معظم اللغويين الحديثين لا يعيرون للبحث النظري في شئون الترجمة اهتماما يذكر، بل يرون أنها نشاط مختل.

ربما كان الاستتكاف عن معالجة الترجمة في ضوء معطيات البحث العلمي الحديث، وعن إعادة النظر في لغتنا في ضوء المعطيات، هو الذي جعل عمليات الترجمة في ثقافتنا العربية أقرب إلى العمليات الأدبية، التي لاتخضع إلا للاجتهاد الذاتي أو العبقرية الذاتية . (1)

إن المترجم الإبداعي، يزاوج بين الإشكال وشكله الواردين في النص الأصلي وبين بعض الإشكالات والأشكال التي يقتضيها مجاله التداولي، مجتهدا في أن يستوفي فيها من المقتضيات المضمونية والمنهجية، ما يضاهي ما استوفاه صاحب النص في إشكاله، ومتى كان الأمر كذلك، اتضح أن الترجمة الإبداعية لا تتلاءم إلا مع مبدأ الكونية المفتحة، فهو وحده الكفيل بتحرير الفكر، إن تنويعا لاستشكالاته أو توسيعا لاستدلالاته .

إن صيغة " الحرية " التي تتصف بها الترجمة الإبداعية، تتعدى ما تطيقه الترجمة المعنوية إلى ما تجيزه ضروب التأليف كالشروح والتفسيرات والقراءات والتحليلات، من غير أن تقرر في ذلك ضروب بعينها، إذ يتعلق الأمر بقدرة المترجم في الإبداع، فإن ضعفت قدرته، جاء بنقل أشبه بالشرح، وإن قويت جاء بنقل أشبه بالقراءة، على هذا تكون الترجمة الإبداعية ضربا لا تكاد تعرفه طرق الترجمة المقررة.(2)

إذا كانت العبارة الشائعة عن الترجمة " الترجمة خيانة "، تريد أن تؤكد أن المرء مهما يبذل من الجهد في ترجمته، فلن يستطيع أن يصل إلى نقل الأصل نقلا تاما، فإن عبارة " الجميلة غير الآمنة "، جاءت لتتخذ الترجمة والمترجم . إن المترجم يؤقلم النص الأجنبي ويدجنه، وقد يكون ذلك ناتجا عن استيعاب وهضم للنص الأجنبي، ثم إعادة كتابته من جديد في الأدب المتلقي، وهذا ما حدث مع

ترجمة إدغار بو إلى الفرنسية، قثمة كاتب أمريكي ساخر، وصل به الأمر إلى حد القول : إن هناك كاتبين يحملان اسم " بو "، أحدهما أمريكي وهو كاتب متوسط جدا، والآخر فرنسي عبقرى هو إدجار بو المترجم، والذي أعيد تشكيكه على يد بودلير ومالارميه . إن ترجمات كهذه، وهي أعمال كبرى في لغتها الأصلية، قد تحولت - دون أن يعني ذلك عدم العودة إليها في أصلها - إلى أعمال كبرى في لغة أخرى . إذا كانت الجميلة غير الأمينة "، قد انفكت من نسج النص الأصلي في اللغة الأجنبية، فإن نظرية القراءة جاءت لتحطم كل ما تبقى من قيود الفكر والمعنى، لترى في الترجمة قراءة تدرس في إطار نظرية القراءة المفتوحة .

وبهذا لا يمكن العودة إلى الحديث عن خيانة الترجمة أو عدم أمانتها أو دورها الهامشي . وإذا كانت مهمة المترجم تكمن في التفسير والترجمة والنقل، فإنه ينقل نصا من ثقافة إلى أخرى، ويدخل نصا في سياق آخر . وإذا كانت قراءة النصوص تنتج نصوصا، فإن قراءة نص أجنبي ستنتج نصا ثابتا سجين ضرورات متناقضة في الظاهر : فمن جهة احترام النص الأصلي، النص المصدر، ومن جهة أخرى ضرورة إنتاج نص آخر، النص المستقبل، وهو نص مبدع أو أعيد إبداعه . يجب أن يفهم من إعادة الإبداع، هذا الخلق الغريب تحت رقابة النص الأول، مع فرص حرية ضرورية، وتأرجح بين الانقياد المطلق (ترجمة أمينة، أو أدبية، أو حتى ترجمة مقابلة للنص)، والحرية في الاقتباس أو التغيير، أو التزوير في الوقت نفسه .

إن دراسة الترجمات تنتمي في المقام الأول إلى تاريخ الأدب المتلقي، بمعنى أن ترجمة نصوص بعينها تعكس حاجة اجتماعية وثقافية وسيكولوجية، خاصة

حقناوي بعلي

بهذا الشعب الذي ينتمي إليه الأدب المتلقي . إن الترجمة تتيح لنا أن نتناول الكاتب واللغة والجمهور من منظور جديد، حيث المترجم موزع بين الأمانة للنص ومزاجه الخاص، بين النقد والإبداع، وحيث الجمهور الذي يجب احترامه ومتطلباته أكثر من ذي قبل، وفيما عدا الترجمات الخفية التي تمت على سبيل التمرينات الأسلوبية، أو حبا في عمل أدب أجنبي، فإن الترجمة تخضع دائما لدقة صارمة في الدعاية، وتعلن نفسها بصراحة كسلعة تجارية .

إن المقابلة بين أفق توقعات العمل الأصلي في بلده، وأفق توقعات الجمهور المتلقي في بلد آخر، ستكشف لنا الخصائص المميزة لكل أدب ولكل شعب، حيث يتجلى ذلك في الرفض أو القبول، أو درجة الترحيب التي يبدئها شعب من الشعوب عن تلقيه نصوصا أجنبية . وكما سبق أن قلنا إن حاجة السوق هي التي تحكم اختيارات الترجمة، وهي حاجة مقيدة بالأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. (3)

وبدهي أن المترجمين هم أهل معرفة، وهم بالفعل كذلك إذ أنه على المترجم، لكي يصل إلى المعرفة، أن يتعرف على كل شيء له صلة مباشرة بطبيعة ومحتوى هدف لغة مصدر معينة . وعندما لا تكون هذه اللغة قابلة للمعرفة من طرف المترجم، فإن الإنتاج المتوخى سيكون مستحيلا، فينبغي أولا، أن يتم فهم اللغة المصدر وإدراكها، ينبغي أن تكون هذه اللغة داخلة في المجال السنني والدلالي لقدرة المترجم، وإذا لم تكن اللغة المصدر معرفية، فإنه يعجز عن تحليل أسباب الفشل أو أسباب النجاح . وبعد أن يكون قد توفر على معرفة باللغة المصدر، آنذاك فقط يمكن له أن يتعامل معها باستبارها موضوعا للفكر . (4)

وبعد ؛ فما هي الترجمة ؟ قد يرى البعض أنه من العسير أن نجد لها تعريفا جامعا مانعا، وحسبنا أن نقول إن الترجمة هي نقل صورة أمينة كل الأمانة للأصل مع سلامة اللغة المنقول إليها، من حيث دقة الفهم، ووضوح الأسلوب، وإحكامه واصطناع المصطلحات المرادفة للمصطلح الأجنبي، وتحرير النصوص، وضبط أسماء الأعلام .

أما الترجمة الأدبية، فهي أصعب من ترجمة الآثار العلمية والثقافية، ذلك أنها تقتضي أن يكون المترجم يجيد اللغة المترجم إليها، وأن يتقمص شخصية الكاتب الأجنبي وخياله وروحه، ويعايش الأثر الذي يترجمه، وخاصة إذا كان هذا الأثر من روائع الأدب العالمي .

ولا بد للمترجم، وخاصة في الآثار العلمية والثقافية، أن يكون واسع الثقافة ملما بالكثير من العلوم والمعارف، واعيا بأسرار اللغة التي ينقل عنها واللغة التي ينقل إليها، مدركا للفروق الدقيقة بين اللغتين، وكذلك يشترط في المترجم أن يكون من أبناء اللغة التي ينقل إليها، وهو مبدأ أقرته هيئة اليونسكو . ثم إن البراعة في الترجمة، هي أن يشعر القارئ أنها قد كتبت أصلا باللغة المنقول إليها . ومن الأمور التي يجب أن ينتبه إليها المترجم ويتداركها :

ألا يلتزم المترجم الحرفية فيفسد بذلك الأسلوب اللغوي، وليس معنى ذلك أن يغفل أي معنى أو ظلا لمعنى ورد في الأصل الأجنبي، وإنما يراعي سلامة اللغة المنقول إليها والتي يكتب بها .

يستعمل المترجمون المحدثون الأسلوب الفضفاض، وينسون القاعدة البلاغية، التي تقول أن كل ما يحذف من غير إخلال بالمعنى يكون أبلغ. يشترط في المترجم أن يختار الكلمة التي تتماشى مع السياق الأصلي .

ولا شك أن العقبات التي تقف في سبيل الترجمة عقبات ليس بالهينة، وهي كثيرة تفوق الحصر وأهمها :

- أننا نسير في الترجمة على خطة غير مدروسة، ذلك أن الترجمة تجري على هوى المترجمين في كثير من الأحيان، فمن شاء ترجمة كتاب معين، والكتاب لا يظهر إلا إذا وجد له ناشر ينشره، ودور النشر الخاصة تحجم عن نشر أي كتاب إلا إذا كان الربح فيه مضمونا.

- ندرة عدد المترجمين المجيدين الآن، حتى أصبحوا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة .

عدم وجود معاهد متخصصة ورفيعة المستوى أو ذات شهرة، لتخريج المترجمين الأكفاء. ثم أن معاهد وأقسام الترجمة الملحقة بكليات الآداب عندنا، لم تلق العناية الكافية، فالإقبال عليها محدود، وهي لا تقتصر في الاختيار على الطلبة الموهوبين، حيث أننا لم نسمع أنها خرجت مترجما نابغا واحدا. (5) وعلينا أن نحذر الغرباء دوماً : المترجمين المرتزقة، مترجمي المقاولات، الذين يترجمون كل شيء، وفي كل المجالات، وحتى عن لغات وسيطة، الكتب الكذبة، الذين يتسببون في كراهية الناس للأدب، بسبب سوقية ترجماته، فيتساءلون باستنكار : ماقيمة هذا الذي ترجموه ؟

ذلك لأنه دون عشق المترجم المبدع وحسه بسخونة لغته وطلاوته، وكذلك حسه بالنص الأصلي، ثم ما هو أكثر خطرا في كل ذلك امتلاكه خريطة الروح، التي امتلكها كمبدع لكل عمل أدبي يقرؤه أو يترجمه، والتي دونها لا يمكن فهم أو تقدير قيمة أو تفرد أي عمل أدبي، أو إدراكك مثلاً أنه لا يمكنك الدخول إلى الأعمال الروائية والقصصية لكتاب القرن العشرين كله، دون المرور لهم من

البوابة الهائلة لارتفاع دستوفسكي، كما لا يمكنك أن تدخل العالم القصصي والروائي لأدباء أمريكا اللاتينية، دون المرور بالبوابة الملكية الإسبانية، من سيرفانتيس، والبوابة الشمالية : وليم فولكنر، وجيمس جويس، وكافكا .

ولذلك فالمبدع مترجما، سيظل أملنا الوحيد إذ هو الذي يدرك جدا أن للنص الأدبي تكويننا بالغ الخصوصية والتفرد، مخلوقا من طينة تتنوع وتختلف وتتشابه مثلما البشر، مبدعو هذه الأعمال وكل عمل يحمل بصمة مبدعة ؛ بصمة تاريخه وموطنه، ولا يمكن أن يتصل منهما أو يخلطها بدماء أخرى، ليس هذا فقط، بل إنه ينتمي لنوع أدبي واتجاه وتأثرات، بعضها يمكن رصده، وبعضها من المستحيل على المبدع نفسه أو مترجمه أو حتى ناقدته أن يحيط بها كلها .

والمترجم المبدع لا يتوقف عند حد معرفته باللغتين، بل يمتلك فوق ذلك الحس باللغة والرهافة، التي يميز بها سمات لغة كاتب واختلافها عن لغة كاتب آخر داخل اللغة الواحدة، بل التميز بين تغير أحوال الأداء للكاتب نفسه : توهج تجربته أو خفوتها وانطفائها، والمفردات وما يطرأ عليها في مضمار رحلته الإبداعية : ما الذي يتحى ويموت منها، وما الذي يتم نحته وميلاده ؟ ما طاقة إشعاع كل مفردة وأداؤها لما تعنيه ضمن شحنات المفردات الأخرى في الجملة، فالمقطع والفصل، ثم في العمل كله .

وإذا لم يكن للمترجم هذا الحس الفائق الرهافة للتمييز دائما بين إيقاع وإيقاع، إيقاع خطوات رقص المبدع أو خطوات ركضه، توقف الخوف، السكون، الارتواء في وهاد الصمت . هذه كلها أحوال تتبدى ونكتشفها في اللغة المكتوبة بها، وحس المبدع المترجم فقط، هو الذي يمسك بإيقاع كل ذلك، ومن يتمكن من ذلك كله فهذه شهادة إبداعه، حتى لو لم يكن يدرك ذلك عن نفسه .

حفاوي بعلي

مبدع العمل الأصلي يقدم لنا إنجازَه بكل هذه السمات والنضارة لنا، وكل منهما المبدع الأصلي والمبدع الثاني، لابد أن يكونا متكافئين إلى حد التناظر، لتحقيق هذه اللغة المشتركة، أو فلنقل هذه اللغة الواحدة، التي تخلقت من لغتين . المبدع أمره هين : أما المترجم الذي يطمح إلى إيداع ترجمته، فيبدو أن أمره أصعب بما لا يقاس . (6)

لقد كان الكتاب المترجم والترجمة حجرا الزاوية في كل نهضة ثقافية، إن الترجمة الوسيلة دوما لبلوغ الهدف وإدراك القصد، وتجاوز التأخر والرمز إلى تطلع الإنسان إلى تجاوز الواقع المتخلف إلى المستقبل الحضاري المنشود . والترجمة أنواع، ويجري عادة التفريق بين نوعين من الترجمة : الترجمة الشفوية الفورية، والترجمة الكتابية .

الترجمة الشفوية الفورية : التي وجدت تلبية لاحتياجات التفاهم بين متكلمي بلغات مختلفة، والمترجم الشفوي، هو مترجم وسيط بين شخصين لا يعرف كل منهما الآخر . بمعنى أنه شخص يقول شفها في لسان ما، مرادف ما قيل في لسان آخر . ولذلك تعني الترجمة الفورية أو الشفوية، تفسير أو نقل ملفوظ من لسان إلى آخر بطريقة آنية أو لاحقة . وبعبارة أوضح، إن الترجمة الفورية هي الطريقة الشفهية للترجمة . وقد يجمع الترجمان التحريري معا، فيقول شفها ما يترجمه كتابيا والعكس صحيح .

وعلى الرغم مما يبدو من أن الترجمة الفورية والترجمة التحريرية كيانان مستقلان، إلا أنهما نشاطان ينقلان المعنى من نظام لغوي إلى نظام لغوي آخر، ومن جماعة إلى أخرى . وهي قديمة النشوء إلا أن الحديث عنها قليل قبل عصر النهضة الأوروبية . كما أن غياب المترجمين الفوريين من المصنفات التاريخية،

تفسره الوضعية الاجتماعية لهؤلاء المولدين، إن على المستوى الإثني أو المستوى الثقافي : فقد كانوا نساء أو عبيدا أو من طبقة دنيا . (7)

وصارت في العصر الحالي صناعة أو اختصاصا، قائما بذاته له معاهده وبرامجه وأصوله وأساليبه، يرغب فيه الراغبون ولا يتقنه إلا المتفوقون .

وفي الترجمة الشفهية، يكون المترجم بصدد الإفصاح عن جملة ما لتفسير المعنى المقصود، وبالتالي لتفادي أي لبس ممكن، فهو يفصح بغية التوضيح، وأحيانا قد يقوم المترجم، حسب مستوى تعقيد اللغة المصدر، بتحليل التركيب النحوي للجملة . ويمكن اعتبار المترجم " مفصحا "، مادامت هذه الطريقة تعتبر جزءا من أنشطته الفكرية . وتتطلب العمليات الذهنية في الترجمة، أن يكون المترجم متمعنا، وهذا يعني أنه يفكر بعمق أن يصبح وسيطا، وأن يعين النظر مليا في لغة المصدر قبل الإقدام على تحرير ترجمته، ولهذا فإن مصطلحي " متمعن " و " وسيط "، بمثابة بديلين لكلمة " مترجم "، فالمترجمون ينجزون عملهم بكيفية تمعنية .

ويعتبر التفسير سمة أخرى للعملية الذهنية التي يقوم بها المترجم . إن التفسير عبارة عن شرح نقدي أو تأويلي، يسبق إنتاج نص - هدف، ورغم أنه ليس ضروريا في شموليته، فإنه يمكن الاعتماد عليه كأداة لإتقان الترجمة . وإذا كانت بعض اللغات المصدر تفسيرية في طبيعتها، فإن لغات أخرى لا تحتاج إلى شرح، ولا يعد المترجم مفسرا إلا إذا اشتغل على لغة مصدر تفسيرية .

وهناك عدم اتفاق بين كتاب الترجمة حول فيما إذا كانت نشاطات الترجمة التحريرية والترجمة الفورية متشابهة، وفيما إذا كان بالإمكان دمجها في برنامج مشترك . وبعض الكتاب يعتقدون بأن هناك اختلافا بين الترجمة والترجمة

الفورية، وينبغي أن تدرس هذه الاختلافات في مناهج مختلفة . إن الظروف التي يعمل فيها المترجمون والمترجمون الفوريون مختلفة، فرغم أن على المترجمين أن يفوا بالمواعيد، فإنهم لا يعملون تحت نفس الضغط الذي يعاني منه المترجمون الفوريون عادة، إن عمل المترجمين يخضع غالبا للتدقيق والمراجعة، على حين أن عمل المترجمين الفوريين لا يخضع لمثل هذا التدقيق أو المراجعة. ورغم أن الفرق الكبير بين الترجمة والترجمة الفورية، يمكن تلخيصه بوسائل الاتصال، أي الكلام للترجمة الفورية والكتابة للترجمة التحريرية . إلا أنه وفيما يتعلق بطرائق تعليم الترجمة والترجمة الفورية فإنهما ليستا مختلفتين : كل من الترجمة التحريرية والترجمة الفورية، يجب أن تدرس في نفس البرامج لنفس الطلبة .

إن الرأي السائد هو أن الترجمة التحريرية يجب أن تسبق الترجمة الفورية، وبهذه الطريقة فهي تشكل أساسا صلبا للترجمة الفورية، وبعض الناس يشعرون بأن هناك تحيزا ينطوي عليه هذا الرأي، والذي يعني أن الترجمة الفورية متفوقة على الترجمة التحريرية، وهذا لا يخفي الحقيقة بأن نشاطات الترجمة التحريرية والفورية يتم إحداها الآخر، ويمكن إدراجهما في برنامج واحد لتعليم الترجمة. (8)

إن الصعوبات اللسانية للترجمة الفورية تطرح أمام المترجمان ضرورة إتقان اللغة التي ينقل عنها والتي ينقل إليها، ومعرفة نظام كل لغة . فنظام الصفة والموصوف في الإنجليزية مختلف عنه في الفرنسية، وفي الألمانية يترك الفعل إلى نهاية الجملة المتعلقة، فهل بالإمكان نقل هذه التراكيب بشكل آني أو فوري دون عوائق .

من الملاحظ أن المترجم قد يتأخر عن الخطيب أو يتقدمه . ولسبب ما يفضل المترجم اكمال الجملة أو الفكرة للشروع في ترجمتها، لكن لا نظن أن هذا سهل مهمته : إذ في الوقت الذي يكون فيه منهمكا في ترديد ما قاله الخطيب، عليه أن ينصت لما يقوله هذا الأخير لأنه يسترسل في الكلام . وفي حالة أخرى قد يسبق المترجم الخطيب، ويعثر على الكلمة المناسبة قبله، وهنا هل يمكن الحديث عن تبصر موهوب ؟

والترجمة الفورية أنواع وتقنيات، وأهمها : الترجمة الفورية أو الآنية، وهي ترجمة الكلام فور تلفظ صاحبه . والترجمة اللاحقة، أو التعاقبية، وهي ترجمة الكلام، أو جزء منه بعد إلقائه من قبل المتكلم، ومن عيوبها مضاعفة ساعات العمل، خلافا للأولى التي تنتهي بمجرد انتهاء المتكلم . الترجمة الهمسية، وفيها يقوم المترجم بهمس ترجمته في أذن المستمع . الترجمة المرئية المقروءة، وفيها يضع المترجم النص الأصلي أمامه، ويقرؤه صمّا في اللغة الأصل، ويترجمه جهرا للمستمعين في اللغة المنقول إليها .

وفي الترجمة الفورية نجد أنواعا من الترجمة : ترجمان المناسبات، ويكون في المفاوضات التجارية . الترجمان العسكري، ينسق الاتصال بين الجيوش، ويشارك في استجواب الأسرى وفي العمليات الميدانية . الترجمان العدلي، وهو وسيط بين القاضي والمتقاضى في المحاكم. ترجمان المؤتمرات، وهي من أعرس مهام المترجم، نظرا لتنوع المضامين وتعدد المفاجآت . (9)

الترجمة الكتابية : التي تتم بنقل المكتوب إلى مكتوب، ويفترض أن تكون هذه الترجمة أكثر دقة وأفضل أداء من الترجمة الفورية، لأن أدواتها القلم والورق وتفسح المجال للتأني والتجويد.

وتتفرع الترجمة الكتابية إلى فرعين :

- الترجمة الإدارية والإعلامية : وهي التي تدخل في عمل بعض الإدارات والدوائر والمؤسسات، والتي تعني بنقل الأخبار والمقالات لوسائل الإعلام، ومثلها الترجمة السياسية والتجارية .

- الترجمة الثقافية العلمية : وهي ترجمة الآثار والمؤلفات الفكرية والعلمية والأدبية والفنية من لغة إلى أخرى .

وهذا اللون من الترجمة عظيم الأهمية والأثر، لأنه طريق التبادل الثقافي بين الأمم والشعوب، والسبيل إلى الرقي العلمي وإغناء المعرفة وبالتالي، هو دعامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء الحضارة المزدهرة .

وهذه الترجمة الكتابية بدورها تنقسم إلى قسمين ؛ هما الترجمة العلمية والأدبية :

- الترجمة العلمية : يقصد بها ترجمة العلوم الأساسية أو البحتة ؛ كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة وعلم الأرض والنبات وعلم الحيوان، وكتب العلوم التطبيقية ؛ الطب والصيدلة والهندسات على أنواعها المختلفة . تتميز هذه الترجمة بأنه ينبغي أن تتوفر لها الدقة والوضوح في المعنى مع صحة المصطلح، وسلامة اللغة وليس مطلوبا فيها حسن الأسلوب وجمال العبارة.

ويشترط في المترجم إتقانه اللغة العربية واللغة المترجم منها، بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية، فالطب لا يترجمه إلا الطبيب والكيمياء لا يترجمها إلا مختص في الكيمياء .

أما كتب العلوم الاجتماعية والإنسانية، فإلى جانب اقتضاها الشروط السابقة، فإنها تحتاج إلى عبارة جيدة وأسلوب شائق، لأن القارئ يحرص على أن تكون هذه الكتب جيدة المضمون والشكل، فيستفيد ويستمتع، ولذا فإن المترجم ينبغي أن يحسن تخير العبارة وإجادة العرض . وتندرج تحت هذا العنوان كتب الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان وعلم التربية والتاريخ والآثار والجغرافية والاقتصاد والقانون والسياسة .

- الترجمة الأدبية : إن هذه الترجمة أصعب من الترجمة العلمية، لأن النص الأدبي ليس فكرة فحسب، بل ينطوي على أحاسيس المؤلف وتخيالاته، وهو نص نسجته يد شاعر أو ناثر موهوب، قصد أن يكون جميلا ومثيرا . ولذا كان أمام المترجم أن يأتي بنص مقابل، يتوفر فيه إلى جانب الأمانة في النقل، ما يبرز النص الأصلي، ولا يضعف أثره ولا ينقص من جماله، ولذا قيل بحق لا يترجم الشعر إلا شاعر ولا ينقل الأدب إلا أديب . ويقصد بكتب الأدب دواوين الشعر والمسرحية والقصة الرواية . وأما كتب النقد والدراسات الأدبية، فهي تقع موقعا وسطا بين الأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعا وأسلوبا. (10)

الترجمة الآلية : تدخل الذكاء الاصطناعي عن طريق مساعدة الحاسوب، لأداء فعل الترجمة عن طريق الأنماط اللغوية والمعرفية المخزنة بفعل تراكيب ومصطلحات، يسترجعها في مقابل اللغة التي يترجم منها . والذكاء الصناعي يأتي عن طريق ذلك الجهاز الغبي والمعقد، الذي يحتاج إلى أدق التفاصيل لكي يفهم ما نريد، ولكي ينفذ ما يطلب منه، ومع غبائه فهو وسيلة جيدة لتقديم معظم مهارات اللغات وعناصرها المختلفة بسرعة وترتيباً وإحصاء وتصحيحاً .

وقد تطور الذكاء الاصطناعي مرارا ومزال يتطور ضمن البرمجيات التي تظهر حديثا، وأغلب من طور هذه البرمجيات رياضيون، وكان هدفهم :
- تحقيق نوع من الاقتصاد في التواصل .

- استخلاص قوانين تساعد على صناعة الأجهزة قادرة على قراءة الرسالة وتفسيرها وكتابتها .

- استحداث أنماط فاعلة لتدريس اللغات وتقديم البديل السهل .

وقد طور الدكتور " بيتر توما " نظام الترجمة الآلية، فأصبح الجهاز باستطاعته أن يطور ما بين 20 - 25 مليون كلمة في العام الواحد . وكان ذلك بداية للمتخصصين في البحث عن توجه جديد، يصلح أساسا للترجمة الآلية بحق، فتم الاتجاه إلى البحث في البنية الصرقية، وأفادوا من نظرية تشومسكي النحوية التحويلية التوليدية، إضافة إلى ما أدخل على هذه النظرية من تعديلات متلاحقة . ومن هنا يرى معظم الباحثين في هذا المجال أنه لا بد من تطوير الذكاء الاصطناعي ليحاكي ذكاء الإنسان . وفعلا حصل أن تطور الجهاز للتعبير عن دقائق اللفظ، إلى جانب التعبير عن متعلقات البديع والمعاني الدفينة، وربط الكلمة داخل السياق الكلامي .

ومع هذا كله فإن الترجمة الآلية بلا شك سوف تريح الباحث والمترجم، وتكسب في الوقت نفسه مساحة بيداغوجية، بحثا عن إدراك المعلومات من شتى القنوات أو من اللغات الأخرى، باستخدام أنظمة الترجمة الآلية من العربية وإليها، والأمل كبير خاصة فيما يحصل عن طريق شركة صخر وباسم وشركة الجيل وشركة العالمية، وما تدره الأنترنت والانترنايت في هذا المجال . واحتمالات المستقبل في هذا المجال، فهي كقيلة بأن تعطي لنا مالا نتوقعه الآن،

حيث يحتتم تطوير الأجهزة التجارية، التي تخدم أغراض السياحة في المقام الأول، وإدخال لغات جديدة في الترجمان الآلي، ومنها العربية . وكذا التحكم في نوعية ودقة الترجمة وفي ترجمة الأفلام، والنهاية غير المريحة تسريح آلاف من المترجمين من عملهم المهني . (11)

من قضايا الترجمة والمترجمين الراهنة

تعد الترجمة أهم قناة يمكن أن تجري فيها التأثيرات الدولية، ومن ثمة تكون دراستها ذات أهمية بالنسبة للدارس المقارن . ولكن ثمة طرقا ومناهج عديدة للترجمة ومنها ؛ إما أن يترك المترجم المؤلف مكانه قدر الإمكان ثم يحرك القارئ ناحيته، ومنها ما قاله فولتير حين ترجم " هملت " إلى الفرنسية، من أنه لم ينقلها حرفا بحرف وإلا خسر المعنى " فالحرف يقتل ولكن الروح تضيف الحياة "، ومن ثمة ابتعد فولتير في ترجمته للمسرحية عن النص، أما شليجل الألماني فقد نشر شكسبير، واقترب بذلك كثيرا من النص . وقد فرق درايدن الإنجليزي بين ثلاث طرق للترجمة ؛ ترجمة الكلمة بالكلمة والحرف بالحرف . ترجمة الجو والروح العامة حيث يظل المؤلف تحت رعاية المترجم ولكن كلماته لا تأتي حرفيا كمعانيه . الترجمة عن طريق المحاكاة حيث يفترض المترجم أن من حقه حرية تغيير المعنى الأصلي حسب ما يراه، مع أخذ إشارات قليلة من الأصل ثم البناء عليها من عنده .

وقد كانت الترجمة في عصر الملكة إليزابيث يسودها التزييق والمحسنات البديعية بسبب تقدير الناس للصوت، ومع ذلك فلكل عصر طريقته في الترجمة . ولكن مشكلة الترجمة أنها لا تقدر حق التقدير إلا على أيدي من لا يحتاجون

إليها. والترجمة لا تحتاج إلى إجادة لغتين من جانب المترجم فحسب، وإنما تحتاج إلى معرفة ثقافتين، أي أن يكون المترجم عارفا وخبيراً بالعواطف وألوان التداعي، والأفكار التي تربط لغة الأمة بحياتها وتقاليدها في كلتا اللغتين .

وللترجمة أثرها على بعض الأدباء والحركات الأدبية، فقد بدأ دستوفسكي حياته بترجمة رواية " يوجين جرانديه " لبلازاك، وكثيراً ما يخطو الأديب هنا من الترجمة إلى التقليد، مثلما حدث مع وولتر سكوت التي شجعت ترجمته الروايات على تقليدها واحتذائها قبل أن يستقل بشخصيته . وفي الوقت نفسه لعبت الترجمة دوراً بارزاً في الحركة الرومانتيكية في ألمانيا، حتى قال الشاعر نوباليس : " إن كل الشعر هو في النهاية ترجمة " .

بل أن الترجمة تصبح أيضاً دراسة في الأساليب، لأن كل مترجم يطبع ترجمته بأسلوبه، كما أن دراسة الترجمة لا تتفصل عن دراسة نظرية الترجمة، لا سيما فيما يتعلق الشعر، فالبعض يعتقد أنه قابل للترجمة، في حين يرى آخرون أن الشعر لا يترجم . (12)

وقد لخص نقاد وكتاب الترجمة طرق الترجمة منذ القرن السابع عشر إلى اليوم ثلاث فئات أو طرق أو نظريات ؛ تشمل الفئة أو الطريقة الأولى " الحرفية الشديدة "، وفيها تتم مقابلة الكلمات المعجمية بمثيلاتها ويتم رصدها. أما الفئة الثانية، فهي المحور الأساسي للنقل الأمين، وفيها تعاد الصياغة دون التقييد بالأصل، ذلك أن المترجم ينقل الأصل ويشكل نصاً، ينسجه في منوال لغته، ويمكن أن يستقل ذلك النص بذاته. والفئة الثالثة عبارة عن المحاكاة، وإعادة الخلق، والتحريف والتأويل، المماثل، كما أنها تغطي مجالا واسعا، يتراوح من

المطابقة مع الأصل إلى الاستعمال الاصطلاحي الأقرب. تتاولا فالتقليد، إلى أن يصل في أبعد مداه إلى التحرر، الذي قد يكون مجرد التلميح إلى الأصل .
تلكم عموميات، غير أن اللسانيات الحديثة قد فتحت آفاقا جديدة لدراسات الترجمة، فبرز ما يعرف بالترجمة التأثيرية، والتطابق الشكلي بين اللغتين .
وهناك الترجمة البائية، التي يتبين القارئ أنها ترجمة، إذ تكون مقيدة بالأصل وتحافظ على تراكيبه وخواصه، وتكون مرتبطة بكيفية معينة بمجتمع وثقافة اللغة المترجم إليها . والترجمة غير البائية، التي تحتل مكانة الأصل في الثقافة المترجم إليها وكأنه منها، ويتساوى فيها المخاطب في كل اللغتين . وهناك الترجمة التأويلية، التي ترى أن كل ترجمة تأويل . (13)

ويدعو " طه عبد الرحمن " إلى ما يسمى بالترجمة " التأصيلية " في باب الفلسفة، عمادها النقل وتعريب الفلسفة، والإقرار على الفلسفة، وتنطبق على كافة الميادين وهي خير أداة للتعريب، لأنها تستوجب الاستيعاب الكامل والخلق والإبداع . وبهذا المعنى يكون النقل هو التبليغ مع التصرف في المعنى المبنى أو كليهما، زيادة أو نقصانا، وتنتهي الترجمة عند الحد الذي يخرج فيه المترجم عن نطاق تركيب النص الأصلي وشكله إذ يزيد فيه ما يزيد عن المعنى أو ينقص منه، قليلا أو كثيرا . وهو ضرب من ضروب التأليف أو منطلق له .

ولا ينحصر هذا الاتجاه في الترجمة التحريرية، وإنما يتعداها ليشمل أيضا الأفلام والمسلسلات والمسرحيات والأوبرا، في إطار ما يسمى بالترجمة المتعددة الوسائط، إذ يجري التفكير في التدخل في الصورة، عوضا عن الاكتفاء بالدبلجة، وذلك لدواعي التكييف الثقافي، وإن أفضل وسيلة في إعادة الإنتاج كلية، مع الإشارة إلى المصدر المقتبس منه من باب الأمانة الأدبية .

ظهرت في الستينات " الترجمة الوسطى "، وكان روادها ينشرون كتاباتهم في دورية " تيل كل "، وهي ترجمة وسطى بين الطريقتين التقليديتين، وهما الترجمة الحرفية والترجمة المؤولة، أي التي تعيد صياغة النص الأصلي في نسيج يجهد في " احترام " طبيعة اللغة المستقلة، ومن دعائها جاك دريدا .

ويرى التفكيكيون أن المترجم، هو الذي يخلق الأصل، كما أن الأصول تعاد على الدوام كتابتها في الحاضر، وما من قراءة أو ترجمة إلا وتعيد بناء الأصل، ولم تعد عندهم للأصل هالة قدسية . ويرون أيضا أنه مامن ترجمة للأصل إلا وتعد انتهاكا له، ومن ثمة يستحيل التطابق الصرف .

وتحدث فوكو عن " العملية التأليفية " لا " المؤلف "، وركز على علاقات النصوص بنصوص أخرى، سبقتها في الإطار العام للغة في نطاق ما أصبح يعرف الآن بالتناص . هكذا يكون عمل المؤلف ليس وحي الساعة، وإنما مرتبط بالنظم المؤسسية للزمان والمكان التي لا قبل للفرد فيها .

تعتبر الوظيفية المحدد الثالث للأمانة في الترجمة، وهي متفرعة عن الدينامية، وتتحدد بأهداف الترجمة وإرغامات اللغة. وفي مقابل هذه العناصر، يمكن أن نتساءل إذا كانت الأمانة ستظل هي هي ؟ وهل يمكنها أن تتمظهر بنفس الطريقة، أم تأخذ أشكالا مختلفة حسب الحالات؟ (14)

لماذا نترجم ؟ وماذا نترجم ؟ ومن الذي يترجم ؟ ولمن نترجم ؟ وما الناشر ؟ وكيف نختار الكتب المستهدفة ؟ وما مدى علمنا بالمنشور المترجم كله ؟

نحن مقبولون على حقبة تتأقف قسري مكثف، أو صراع ثقافي غير متكافئ، وهذه الحقبة أحد مظاهر التحدي الحضاري، سواء جرى التأقف باسم المتوسطية أو الشرق أوسطية، أو العالمية، ونحن في جميع الأحوال عاطلون من أسباب

المناعة الثقافية، التي يمثل العلم والإنتاج العلمي ركيزتها، مما يجعلنا فريسة محتملة، وبدلاً من أن يكون التفاعل ثقافياً صحياً، سوف يتراوح ما بين الارتقاء على الآخر أو الانكفاء على الذات، ونغدو نماذج لتاريخ انقراض .

إننا نتوقع أن يكون للمؤسسة العربية في ظل هذا المناخ، وفي ظل مواجهة التحديات الحضارية دورها، الذي يفى حاجة أمة تعي عبء مسئولية النهضة وشروطها، وحقيقة التكتلات الإقليمية وتذكر أسس التكافل والتضامن على الصعيد القومي العربي، ومن هنا يتمثل الدور المنتظر في : جمع وتوحيد وتنسيق جهود الترجمة والنشر، والتكافل في التكاليف من أجل إصدار الموسوعات، وعيون المراجع والمعاجم التي تشكل حجر الأساس لأي نهضة علمية . وخلق حركة ترجمة تتسع لجميع التيارات، في تداخلها وتفاعلها وتعارضها في آن واحد، بحيث تكون الترجمة آلية ضرورية، تلبي حاجة ملحة وواسعة النطاق، مما يدعم كلا من التوجه الفكري وحاجة السوق. تجنب الأثر السلبي لطابع الربح التجاري السريع، والاختيار الفردي والعشوائي الارتجالي في مجال الترجمة سواء للكبار أم للأطفال. خلق صلة إيجابية فاعلة مع المراجع العلمية، بغية توحيد المصطلحات وإصدارها ضمن المنشورات لتكون مرجعاً. التعاون بين الناشرين بإصدار ثبت ببليوغرافي سنوي بالمنشورات المترجمة، وعرض خطط المستقبل لتكون موضوع حوار، فضلاً عن ندوات ليكون الحوار والندوات بمنزلة غذاء، تراجع وتضيف وتصحح وتحفز المناخ. (15)

إن الكتاب القيم - ومعظم الكتب التي نترجم قيمة بالأصل - عندما يترجم بشكل رديء، يخلف في ذهن القارئ المتعطش إلى المعرفة أو المضطر إليها، شعوراً بالخيبة والاحباط. وهكذا عوض أن يكون الكتاب المترجم مدعاة لشحن

الوعي وبلورته، وحافزا على قراءة المزيد، يصبح أداة لنزع الثقة عن الثقافة إجمالا، وعنصر إحباط وعدم تشجيع على القراءة بشكل مخصوص. والأسوأ من ذلك أن الترجمة الرديئة تنفر أول ما تنفر أولئك القراء السليمي الأذهان : إذ ينبغي أن يتوفر لدى القارئ ذهن متلبد بالعقيدة أو بشحنة إيديولوجية، تطاول الحدود المرضية حتى يظل مستمرا في القراءة، رغم أن ما يقرأه مبهم ومربك وركيك . وهكذا تؤتى الترجمة الرديئة ثمارها مضاعفة. ومنها خطورتها لا رداؤها فحسب. ثم إن خطر الترجمة الرديئة لا يقتصر على إحباط ذوي الأذهان السليمة وانخفاض القيم الثقافية، بل يتعدى ذلك إلى المساس بكيان اللغة نفسها ويتهدهده. لأن الترجمة مرآة تتعكس فيها لدينا صورة الآخر وصورة ثقافته. فإن لم تكن المرآة مجلوة كما يجب، رأينا فيها صور مشوهة، بل قبيحة وممسوخة. وأدى لدينا ذلك إلى نفور، قد يكون في غير محله من الحكمة. وقد يستغل هذا النفور من قبل دعاة يتصيدون المناسبات لبث دعاوى وخدمة إيديولوجيات. إن مجرد الصورة المشوهة التي تعكسها مرآة الترجمة كفيلا بتشويه علاقة الذات الثقافية بالآخر، وذلك بصرف النظر عما إذا كان الآخر صديقا أو عدوا.

المصادر والمراجع والهوامش

- 1 - حسن قبيسي : المتن والهامش، المركز الثقافي العربي، [الدار البيضاء، بيروت - 1997، ص : 271
- 2 - طه عبد الرحمن : الحق في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت - 2002، ص : 151

الترجمة.. والمترجم ..احتراف.. أم إبداع؟

- 3 - أحمد عبد العزيز : نظرية جديدة للأدب المقارن، مكتبة الأنجلو
مصرية، القاهرة - 2002، ص : 142، 149
- 4 - عبد الله الحميدان : المقومات الذهنية في عملية الترجمة، مجلة فكر
ونقد، المغرب، عدد 10، يونيو - 1998، ص : 84، 87
- 5 - إبراهيم زكي خورشيد : الترجمة ومشكلاتها، الهيئة المصرية العامة
للكتاب - 1985، ص : 30
- 6 - محمد إبراهيم مبروك : الترجمة، كيف تصوغ مبدعيها ؟ مجلة العربي،
الكويت، العدد 518، يناير - 2002، ص : 34
- 7 - عبد النبي ذاكر : الترجمة الفورية، تقنيات التأريخ، وتاريخ التقنيات،
مجلة المترجم، مخبر الترجمة، جامعة السانية، وهران، العدد 6، ديسمبر -
2002، ص : 12، 13
- 8 - محمد شاهين : نظريات الترجمة وتطبيقها في تدريس الترجمة، مكتبة
الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن - 1998، ص : 46
- 9 - المرجع السابق، ص : 74
- 10 - شحاتة الخوري : الكتاب المترجم، المجلة العربية للثقافة، المنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 4 - 1983، ص : 71، 72
- 11 - صالح بلعيد : دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، الجزائر -
2003، ص : 200، 202
- 12 - س.س. بروور : مدخل للدراسات المقارنة، ترجمة وعرض علي
شلش، مجلة الفيصل، السعودية، العدد 88، يوليو - 1984، ص : 86، 86

- 13 - محمد الديداي : الترجمة والتواصل، دراسة تحليلية لدور المترجم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت - 2000، ص: 83
- 14 - المصطفى مويقن : مفهوم " الأمانة " في الترجمة، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 10، يونيو - 1998، ص : 126، 127
- 15 - شوقي جلال : نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، مجلة العربي، الكويت، العدد 453، أغسطس - 1996، ص : 56